

آدم والملائكة وإبليس ماذا نفعل بما لا نعلم؟

06 أكتوبر 2026

فكر وتحليل

9 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

آدم والملائكة وإبليس ماذا نفعل بما لا نعلم؟



تخيّل أنك ترى في مخلوق قادم قابليّةً للفساد
وسفك الدماء. ثم يأتيك الأمر أن تسجد له.
هذه ليست الطريقة التي تتوقع أن يُقدّم بها
آدم.

في البقرة، يعلن الله للملائكة أنه جاعل في
الأرض خليفة. فيسألون: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ}. يأتي الرد: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ}.

لا يأتي الجواب بإنكار الفساد. بل يحدث ما هو
أغرب: يُعلّم آدم الأسماء، ويعترف الملائكة بأن
علمهم يقف عند ما علّموه، ثم يسجدون بأمر
الله.

اقرأ هذه المشاهد ولا أكف عن العودة إلى

السؤال: ماذا يحدث حين نرى شيئاً حقيقياً في إنسان، ثم نتصرف كأننا رأيناها كله؟ لا أدّعي أنني عرفت علة الأمر الإلهي بالسجود. ما يشغلني هو ما تفعله القصة بأحكامنا نحن: الملائكة يسألون، وإبليس يجزم، وآدم يخطئ ثم يعود. وفي كل مرة يعود السؤال نفسه: ما الذي ظننا أننا عرفناه؟

١ - رأى الملائكة الخطر، لكن الخطر لم يكن الصورة كلها

لم يقل الملائكة: «نحن خير منه». سألوا عن الفساد وسفك الدماء، وقابلوا ذلك بتسبيحهم وتقديسهم.

ولو أردت أن أدافع عن الإنسان بإنكار ما سفكه من دم، لخسرت المقال قبل أن يبدأ. السؤال

مخيف لأنه ليس تافهًا. لكن جواب الله لم يجعل
الخوف آخر ما يُقال عن آدم.

لم نُخَبِّرْكم عرف الملائكة عن مستقبل البشر.
نعرف أنهم سألوا، وأن المشهد التالي كشف
لهم ما لم يكن في السؤال: علماً أُعطي لآدم.
ثم قالوا هم، بلا مكابرة: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا
عَلَّمْتَنَا}.

تستطيع أن تقول شيئاً صحيحاً عن الإنسان، وأن
تخطئ حين تظن أنك قلت كل شيء عنه.
المشكلة لا تبدأ من رؤية الخطر. تبدأ حين تصبح
الرؤية الجزئية حكماً نهائياً.

II - جاءت الأسماء حيث توقعنا سجلاً في
الطاعة

عقب قوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، يروي

القرآن: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ}. فيقولون: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}. وَيُنَبِّئُهُم آدَمُ بِالْأَسْمَاءِ.

ليس المشهد اختباراً لآدم في ضبط الشهوة. يظهر فيه بما عُلِّمه، فيما يقرّ الملائكة بأن علمهم نفسه منحة، وأن له حداً.

ما هذه الأسماء؟ اختلف المفسرون: أسماء الأشياء، أو الذرية، أو الملائكة. لكن وسط هذا الاختلاف يبقى شيء يصعب تفويته: آدم عُلِّم. الله أظهر للملائكة من علمه ما لم يرد في سؤالهم الأول.

والأسماء، إذا فكرت فيها خارج الخلاف التفسيري، تفتح باباً مدهشاً: حين أسَمِّي شيئاً أستطيع أن أحمله في اللغة إلى من لم يره.

وأن أعلمه. وأن أصنع به دواءً أو سلاحًا. ليس
في الآية تقرير عن تاريخ اللغة؛ هذا ما يوقظه
مشهدا في ذهني.

العلم هنا لا يعصم الإنسان. لكنه يجعل اختزاله
في قدرته على الإفساد حكمًا متعجلًا. ومشهد
آدم لا يحتاج أن يتحول إلى إعلان تفوّق كل
إنسان على كل ملك حتى يبقى مدهشًا.

III - هل نحتاج إلى تصغير الملائكة كي نرى
آدم؟

أسمع تفسيرًا شائعًا: الإنسان أعظم لأنه يطيع
رغم شهوته، أما الملك فلا شهوة له. أفهم
جاذبية الفكرة. لكنني كلما عدت إلى السجود
وجدتُ آدمًا لم تُرو بعد رحلة مجاهدته ولا توبته.
لماذا أستدعي سيرته المقبلة كي أمنحه قيمة

في هذه اللحظة؟

والملائكة؟ يصفهم القرآن بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم. لا يقول إن طاعتهم حركة آلية.

لماذا تُختزل منزلتهم لكي نرفع آدم؟

يبدو لي أن رغبتنا في ترتيب الفائزين تجعلنا نفوّت المشهد. آدم لم يكن ملاكًا ناقصًا. والملائكة لم يصبحوا أقل شأنًا حين أقرّوا بأنهم لا يعلمون. ربما كانت تلك الجملة - «لا علم لنا إلا ما علمتنا» - أجمل ما قالوه.

١٧ - إبليس رأى الطين وحوّله إلى معيار قيمة الملائكة سألوا؛ إبليس رفض. والفرق بين الفعلين يظهر في الكلام الذي قاله كل طرف. قالوا: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}. وقال هو: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}.

ليس اعتراضه، كما قد يتخيله قارئ لاحق، «لا أسجد إلا لله». حجته التي سجلها القرآن تتعلق بمادة الخلق وبالمنزلة المستنتجة منها. النار والطين حقيقتان في بنية القصة؛ أما انتقاله من «خلقتني من نار» إلى «أنا خير منه» فهو الحكم الذي استكبر به.

وبعبارة معاصرة: جعل الأصل شهادة استحقاق. يمكنني أن أرى هنا شبهًا بآليات التفاخر بالنسب أو العرق، بشرط ألا أسقط تلك المصطلحات التاريخية على النص بوصفها ألفاظه أو أقول إن إبليس «اخترع» كل تعصب بشري.

إبليس رأى الطين. والله أعلم بآدم.

لم يكن إبليس من الملائكة؛ يقول القرآن: {كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}. لكنه حضر

مشهد السؤال والجواب. الملائكة قالوا: «لا علم لنا إلا ما علمتنا». وهو قال: «أنا خير منه».

ليس الفرق أن أحدهم امتلك معلومة والآخرين لا. إبليس عرف مادة خلقه ومادة خلق آدم، ثم تصرّف كأن المادتين تكفيان ليصدر الحكم كله.

سؤال الملائكة انتهى باعتراف بحدود المعرفة. حجة إبليس بدأت بيقين أن المادة تكفي للحكم على القيمة.

هذه مفارقة أظنها أبقي من أي جدول يفرز الكائنات إلى درجات ثابتة: السؤال قد يكون بداية فهم؛ والثقة بمعيار ناقص قد تصبح باباً للعمى.

٧ - الخطأ الذي يتحوّل إلى نظرية

ولا يصير آدم معصوماً لأنه تعلّم الأسماء. القرآن

يقول: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ
فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}. ويورد اعترافه هو وزوجه:
{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا}.

وإبليس؟ لم يقل: «ضعفت». قال: {أَنَا خَيْرٌ
مِّنْهُ}.

ليس الخطأ نفسه. آدم خالف نهياً، وإبليس أبى
أمرًا واستكبر. لكنني أتوقف عند ما قالاه بعد
ذلك: الأول سقى فعله ظلمًا لنفسه وطلب
الرحمة؛ والثاني قدّم رفضه كأنه نتيجة منطقية
لتفوّقه.

مأساة إبليس ليست أنه أخطأ مرة. مأساته أنه
جعل من خطئه نظرية.

وهذا ما يخيفني في نفسي أكثر من لحظة
السقوط: أن أضع كل طاقتي في تفسير يثبت

أنني لم أسقط أصلًا. التوبة لا تجعل الأذى الذي وقع خيرًا، ولا تسقط حق من تضرر. لكنها تبدأ من مكان لا يبلغه صاحب «أنا خير منه»: الاعتراف.

٧١ - هل رأينا كل ما خُلق؟

يقول القرآن: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ، ثُمَّ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}.

«كثير» ليست «الكل». لكنها ليست دليلًا على وجود مخلوق أعلى منا أيضًا. أقرأها فانتبه إلى شيء آخر: كم أحب أن أملأ المسافة بين ما قالته الآية وما لم تقله بترتيب أضع فيه نفسي عند القمة. حتى المفسرون اختلفوا في سعة هذا التفضيل.

وفي الشورى: {وَمَا بَتَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ}. وفي

النحل: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

أرفع عيني إلى السماء وأتساءل: هل هناك حياة لا نعرفها؟ لا أعرف. ولن أُخرج حضارة من آية لم تسمّها. المفسرون أنفسهم قرؤوا «ما بث فيهما» على وجوه مختلفة؛ أحدها يشمل الملائكة، ووجه آخر يجعل البث في الأرض.

لكنني لا أستطيع كذلك أن أرسم للخلق حدودًا لم يرسمها النص. المجهول يبقى مجهولًا؛ وهذه ليست إجابة مخيبة. إنها فرصة نادرة لأن نتوقف عن ادعاء امتلاك خريطة كل شيء.

VII - ما الذي لا نعلمه عن أنفسنا؟

في البداية، لم يكن سؤال الملائكة بلا سبب. ما زال الدم الذي يسفكه الإنسان يضعه أمامنا كل

يوم. لكن السؤال لم يكن القصة كلها.
تحت أنقاض صنعها بشر، يبحث بشر آخرون عن
طفل لا يعرفون اسمه. لا يُبْرَأُ الإنقاذُ من صنع
الأنقاض. لكن مشهد الدم، مهما كان فادحًا،
ليس المشهد الوحيد الذي تركه الإنسان وراءه.
الملائكة رأوا حدّ علمهم فقالوا: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا
عَلَّمْتَنَا}.

إبليس رأى الطين فقال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ}.
وآدم، الذي سجد له، عرف خطأه فقال: {رَبَّنَا
ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا}.

ثلاث جمل لا ترتّب أصحابها في جدول، لكنها
تجعلني أسمع الفرق بين سؤالٍ بقي مفتوحًا،
وحكمٍ أغلقه صاحبه، واعترافٍ فتح طريق العودة.
كلما ظننت أنني رأيت الإنسان كله، أعادتني

القصة إلى الجواب الأول:
{إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.